

جمالية المشكلة في مختارات للمنتبي

✍ شارف عبد الكريم
جامعة سيدي بلعباس

ملخص :

تحاول هذه الدراسة المتواضعة أن ترصد جماليات المشكلة في مختارات من شعر المنتبي ، وتعمل على مبدأ أن كل تقنيات التعبير في النص الشعري لها دورها وأهميتها ولا نستطيع إدراك معنى للعمل من غير أن نأخذ في الحسبان طريقة إخراجها .

والمشكلة يتنازعها علمان ، البيان والبديع ، وهذه مزية قد لا تكون في غيرها من الفنون ، لذلك فإن دراستها في النص الشعري المستهدف كانت تركز على الجانب التخيلي فيها وعلاقته بالمبدع والمتلقي ، على أن طرائق التخيل بأسلوب المشكلة تختلف بحسب المقام.

ثم إن أسلوب المشكلة يمثل اختيارا من اختيارات المبدع بفضل ما تنتجه اللغة الشعرية من انزياح عن المعيار ، لأن تحقيق اللفظ معناه القارّ - الموضوع له في اللغة - يرتد بالنص إلى اللغة المباشرة فيخسر بالتالي اهتمام القارئ، ومن هنا حقّ لهذا الفن أن يعوّل عليه في مختلف السياقات الإبداعية من جهة المبدع ، وأن يتجاوز عنه نظرة التحسين من جهة المتلقي .

1 - المشكلة :

1.1 - لغة

المشكلة في اللغة الموافقة والمشابهة والمماثلة ، الشكل هو الشبه والمثل ، وما يوافقك ويصلح لك تقول هذا من هواي ومن شكلي¹ ، وهذه الأشياء أشكال وشكول وهذا من شكل ذاك : من جنسه .

1.2 - المشكلة اصطلاحا :

المشكلة في اصطلاح البلاغيين : ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته، تحقيقا أو تقديرا² وهذا التعريف هو الذي استقر عليه البلاغيون في

الفيروزآبادي، القاموس المحيط، مكتب تحقيق التراث، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1407 هـ 1
ص: 1317¹

القزويني، التلخيص في علوم البلاغة، تح: عبد الرحمن البرقوقي، دار الفكر العربي، ط2 2
1932، ص356

العصور المتأخرة ، ولعل الفراء أول من انتبه إلى هذا الفن ، إذ يقول في قوله تعالى "فَإِنْ أَنْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ"¹ ، فإن قال قائل : أعدوان هو وقد أباحه الله لهم ؟ قلنا ليس بعدوان في المعنى ، إنما هو لفظ على مثل ما سبق قبله ، ألا ترى أنه قال "فَمَنْ اِعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اِعْتَدَى عَلَيْكُمْ"² فالعدوان من المشركين في اللفظ ظلم في المعنى ، والعدوان الذي أباحه الله وأمر به المسلمين إنما هو قصاص ، فلا يكون القصاص ظلما وإن كان لفظه واحدا³ وهو بهذا يعده إتفاقا في اللفظ دون المعنى .

وتحدث كثير من البلاغيين القدامى عن هذا الفن في اللغة مع اختلاف في الإصطلاح ، فسماه المبرد "المزج" وذكره ابن قتيبة في باب مخالفة ظاهر اللفظ معناه ووضع الرمانى والباقلاني تحت باب المزاوجة⁴ ، وذكرها أبو هلال في باب المقابلة في المعنى ، ويمثل العسكري لذلك بقول الله تعالى "وَمَكْرُؤًا مَكَرًّا وَمَكْرُؤًا مَكَرًّا"⁵ فالمكر من الله هو العذاب جعل مقابلا لمكر الكفار .

والمشكلة منها التحقيقية ومنها التقديرية ، والأولى أكثر استعمالا في اللغة ، ومن أمثلتها قول الله تعالى " فَمَنْ اِعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اِعْتَدَى عَلَيْكُمْ "⁶ فالاعتداء الأول ظلم وهو اعتداء في اللفظ والمعنى ، أما الاعتداء الثاني فهو جزاء وهو حق وليس باطلا ، وإنما أطلق لفظ الاعتداء لهذا المعنى مشكلة للفظ المصاحب ، وكذلك قول الشاعر :

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا⁷

فقد سمى الشاعر المعاقبة والجزاء "جهلا" لقوله "لا يجهلن" مشكلة بين اللفظين ، وكثير مثل هذا في كلام العرب .

والمشكلة التقديرية تكون الألفاظ المشاكل بها غير موجودة ، وإنما تفهم من السياق ، ويعرفها السنتيت بقوله " ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته تقديرا ، فاللفظ الدال على الغير غير مذكور ولكن دلت عليه قرائن الأحوال"⁸ ومن أمثلتها قول الله تعالى " صَبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ

سورة البقرة ، الآية¹⁹³

سورة البقرة ، الآية¹⁹⁴

الفراء ، معاني القرآن ، ج 1 ، ص 116³

محمد زغول سلام ، ومحمد خلف الله أحمد ، ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ، دار المعارف

بمصر ، ط 3 ، د ت ص 99⁴

سورة النمل ، الآية⁵⁰

سورة البقرة ، الآية¹⁹⁴

الشنقيطي ، شرح المعلقات العشر ، تح : محمد عبد القادر الفاضلي ، المكتبة⁷

العصرية ، بيروت ، لبنان ، 2003 ، ص 130

الشحات محمد السنتيت ، دراسات منهجية في علم البديع ، مكتبة الاسكندرية ، مصر ، ط 1 ،

1994 ، ص 136⁸

صِبْغَةٌ¹ فصبغة الله أي تطهير الله ،لأن الإيمان يطهر النفوس،وقد استعمل الصبغ في التطهير على سبيل المشاكلة لوقوعه في صحبة صبغة النصارى المفهوم من الحال ،وهي هنا مشاكلة تقديرية لأن لفظ "الصبغ" لم يتقدم ولكن دلت عليه قرينة الحال ² وهي هنا سبب نزول الآية .

2 - جماليات المشاكلة :

إن فن المشاكلة وإن عدّ من محسنات الكلام ،غير أن له خصائص ربما تبرر تصنيفه ضمن المجاز لدى بعض البلاغيين ،وما ذلك إلا لأن هذا الفن داخل في البلاغة ودال على السمو والارتفاع ،يكشف للسامع سحر الكلام،ويصل المعنى من خلاله إلى المكامن ،وليس من شك أن كل فنون الكلام على روعتها لا تكون قمة إلا وهي في نسيج القرآن الكريم ،وتأمل قول الله "وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَا كُمْ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ"³ فالله سبحانه وتعالى لا يضل ولا ينسى ، ولكنه يجازي هؤلاء بتركهم في العذاب ترك المنسي .

2 - 1 - المبالغة :

للمشاكلة فضل في المبالغة ،لأن اللفظ المشاكلي يخرج مخرج غيره في المعنى ،وإن كان ذلك المعنى ليس له في سياق غيره،وإذا كان الحال كذلك فإن هذا التوسع يراد به تقوية المعنى وتأكيده بضرب من المبالغة ،قال تعالى " وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَؤُنَ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ"⁴ فجزاء هؤلاء من الحق تبارك وتعالى من جنس عملهم ،ولفظ الاستهزاء يبلغ الغاية في الوعيد والتحذير.

وبالعودة إلى ديوان المتنبي يتكشف لنا كيف استطاع هذا الشاعر أن يوظف الإيهام الشعري بأسلوب المشاكلة ،وقد تكون الشواهد التي نوردها في هذا الباب قليلة بالنظر إلى حجمها في الديوان،لكننا سنحاول أن نبرز جمالياتها في السياق النصي ،خصوصا ما تعلّق بالجانب "التخييلي" في الألفاظ،فالمشاكلة لا بد أن يكون من وراءها قصد فني ،وهي لا تعبر بحال عن ضعف أو قصور من المبدع فيما يخص معجمه.

وإخراج اللفظ أخرجه في المعنى مع المحافظة على صورته ،غالبا ما يُقصد به الإبقاء على النموذج اللغوي المقدم من المبدع،لاستدراج المتلقي،ولفت نظره إلى التناسب الحاصل ما بين الألفاظ في تسلسل يستدعي منه الإعجاب،ويحثه على إعادة القراءة،لأن التكرار لا يكون للفظ إلا إذا كان

سورة البقرة ،الآية ¹³⁸

محمد الستيت،المرجع السابق،ص ¹⁴⁶

سورة الجاثية،الآية ³⁴

سورة البقرة ،الآيتان ^{14،15}

متميزا في سياقه عن الألفاظ الأخرى ، لذلك فالمبالغة تصبح في مثل هذه الحال غاية الإيهام بالمشاكلة ، وقول المتنبي مثلا :

طلبت لها حظا ففاتت وفاتسني وقد رضيت بي لورضيت
بها قسما

فأصبحت أستسقي الغمام لقبرها وقد كنت أستسقي الوغى والقنا
الصما

هيني أخذت الثأر فيك من العدى فكيف بأخذ الثأر فيك من
الحمي

وما انسدت الدنيا علي لضيقها ولكن طرفا لا أراك به
أعما

ولو لم تكوني ابنة أكرم والدي لكان أباك الضخم
كونك لي أمما

لئن لذ يوم الشامتين بيومها لقد ولدت مني لأنفهم
رغما

تغرب لا مستعظما غير نفسيه ولا قابلا إلا لخالقه
حكما

ولا سالكا إلا فؤاد عجاجة ولا واجدا إلا
لمكرمة طعما¹

تظهر فيه المبالغة من خلال مشاكلة لفظ " استسقي القنا " للفظ السابق
"استسقي الغمام " فالشاعر كان صاحب حرب لا يخرج منها إلا ليدخل أخرى
وذلك قوله "وقد كنت أستسقي الوغى والقنا ..." ومعلوم أن الاستسقاء يكون
بالطلب والإلحاح فيه.

إن الشاعر بهذا الإيهام يبرز أهمية الحرب في حياته ، والدلائل في
المقطع تكاد تختصر خطابه في عبارة واحدة هي قوله في القصيدة :

وإني لمن قوم كأن نفوسنا بها أنف أن تسكن اللحم والعظما
لقد أوهم الشاعر - وهو في مقام الرثاء - أن طلب السقيا لقبر جدته
واحد من أمور مهمة في حياته، وكأنما لم يشغله عن "استسقاء الحرب" إلا
دعاه لفقيدته، ولولا ذلك ما انقطع عن قتال أعداءه ، وقد جعل كثرة طلبه
لدمائهم استسقاء ، كما يلحّ الداعي في طلب الغيث.

وابقاء الشاعر للفظ "استسقي" يمهّد لفكرة أخرى أراد أن
تبلغ جدته، وتبقي القارئ متصلا بموضوع الرثاء بشكل يظهر فيه التناسب
، لأن كل فنيات المبدع في الشعر قائمة "على أسس نفسية، تراعي شعور
القارئ ، ونمو التأثير العاطفي والوجداني للقصيدة فيه ، فلا يسوغ أن يصدم

المتنبي، الديوان شرح الواحدي، دار الأصالة، الجزائر، ط1 ، 2009، ص1 266

القارئ بأحاسيس متضاربة تتركه صريع النظرة غير المتوازنة ألى أجزاء النص¹ والإبقاء على اللفظ يكون أنسب في التخلّص إلى غرض آخر يقصد إليه الشاعر.

وإذا كان الشاعر يموّج في بحر من "الحزن والغیظ" فإن له أن يجتهد في الدعاء، وأن يعطي المتلقي فرصة للتبصر فيما يكون عليه اللفظ إذا أكتسى معنى غيره من الألفاظ، وقد يسأل: لِمَ يضمّن الشاعر ذلك المعنى وفي اللغة أبداله؟

والجواب لا يكون واحداً، ولا قاطعاً، لكنّ الذي يشفع لقولنا "أنه أراد أن يبالغ في افتخاره بنفسه، وكأنه يروّج عنها، ويتسلّى عن حزنه، ويطمئن جدته " أنه ذكر دوامه على الحرب، وعظمته وحبّه للمجد

ومعنى "الإلحاح في الطلب" الذي تضمّنه فعل "استسقي" يكشف عن نفسية الشاعر، ويمثّل وصفا صادقا بليغا لما كان عليه - أو ادّعاء - فقد قصر سعيه في الأرض على طريق الحرب تحت العجاج، ولو كان اللفظ في غير المشكلة لقال مثلاً "أخوض الوغى" ولا معنى للطلب ولا الإلحاح في هذا؛ لأنّ خائض الحرب قد يكون مُكرهاً .

ثم إن زمن الفعل المشاكل سابق للفعل المشاكل، وقد قال "فأصبحت استسقي الغمام" بعد أن كان يستقي الوغى، حتى يخيّل إلى القارئ أن الفعل الذي وقعت به المشكلة أصل لذلك المعنى، وهذا جانب موهّم كذلك الأسلوب، لأن محاكاة الشيء في غيره أحسن موقعا في النفوس من محاكاته بنفسه، والشاعر يستخدم لغة الناس بطريقة خاصة، حتى يخرجها بصورة لم يعهدها قانون اللغة، والقصيدة "نص لغوي فني تتجاوز بدالاتها المستوى المعجمي للغة إلى مستويات دلالية أكثر عمقا وأكثر تنوعا"²، لا يُعرض عنها المتلقي وإن استغربها، فهي تخرج إليه في هيئة تسحره وتجعله يذعن .

وقد يقصد الشاعر إلى "المبالغة في تكثير الأوصاف المتعلقة بالجهة التي القول فيها، فيستقصي من ذلك ما كانت له حقيقة، وربما تجاوز ذلك إلى أن يخيّل أوصافا يوهّم أن لها حقيقة في تلك الجهة"³ وعلى هذا فمشكلة المتنبي في البيت السابق تجعل لفظ "الاستسقاء" قابلا لمعانٍ إضافية، لأن ما طلب به السقيا قد يكون منه فعل مماثل، والرمح قادر على إراقة دماء الأعداء حتى تسقى بها الأرض، هذا إن حملنا المعنى على الحقيقة، أما إذا حُمِل المعنى على

إبراهيم خليل، الأسلوبية ونظرية النص، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط 1، 1977، ص 57

فايز الداية، علم الدلالة العربي، النظرية والتطبيق علم الدلالة العربي، دار الفكر دمشق، سوريا، ط 2، 1996، ص 17

القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تح: محمد الحبيب بن خوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 2، 1981، ص 292

المجاز فإنه يصبح أروع وأبلغ في توصيف الشجاعة والإقدام ،ولا يكون الرمح سلاحا في هذه الحال ،بل يتجلى سحابة تمطر دماً
يضاف إلى هذا أن اللفظ المشاكل لا يبالغ في أداء المعنى فحسب بل يحفز المتلقي إلى إعمال الفكر والتدبر في هذا العدول " لأن المعنى المراد يظهر في لفظ غير لفظه، فيبدو في رداء غير مألوف مما يثير انتباهه ويستدعي إصغاءه ¹ والمتلقي غالباً لا يتوقع أن يكون جواب الشرط مثلاً هو فعل الشرط ، ولا يستسيغ ذلك ،فالشرط غير الجزاء من حيث كان الشرط سبباً والجزاء مسبباً ،ومحال أن يكون الشيء سبباً لنفسه، وفي قوله تعالى "إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ" ² يرى الجرجاني أنه لولا أن المعنى في أحسنتم الثانية غير المعنى في الأولى ،وأنها في حكم فعل ثان لما ساء ذلك ³ وهذا المعنى في الثانية يكتسبه اللفظ مما إضيف .

2-2 - تجدد المعنى :

كما أن المشكلة من الأساليب التي تحافظ على تناسب الألفاظ من حيث أيقاعها وتضفي على التركيب معان أخرى ثوانٍ تضاف إلى المعاني الأول، يرى الدكتور منير سلطان أنها "ليست الإبقاء على إيقاع معين فحسب، بل وإضافة معنى آخر، يأتي بمجيء الكلمة نفسها في موقع آخر" ⁴ ولا يكون القصد بإيراد اللفظ المشاكل مجرد تحسين ،إنما يساق ذلك لمقاصد أخرى، كقوله تعالى "فَاعْرِضُوا فَاَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِي أُكُلِ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ" ⁵ فهو لاء كفروا ولم يشكروا النعمة ،فبدلهم الله الجنتين بأن قدر رزقهم، لكن الآية عبرت عن البديل بلفظ "جنتين" تهكما وسخرية من الكافرين .

ومسألة الإبقاء على الإيقاع مع إضافة المعنى ،وما تحمله من جماليات ،تستدعي من القارئ فطنة ليستطيع فك شفرة المعنى المقصود، فقد لا تظهر المقاصد كلها من المبدع لأغراض ذاتية تدخل ضمن نطاق الفن، والقارئ دوما يسعى لتأويل الكلام في الشعر، حتى وإن كان يبدو واضحاً، لأنه يُقبل على النص ويعلم مسبقاً أن المعنى لا يمكن أن يكون كما يبدو أول وهلة ،لذلك يسعى الشعراء في كثير من الأحيان إلى مغالطة المتلقي ببعض الألفاظ الموهمة ،فقول المتنبي:

الشحات محمد الستيت، المرجع السابق، ص 149¹

سورة الإسراء الآية 72

الجرجاني، دلائل الإعجاز تح محمود شاكر، دار المدني، جدة، السعودية، ط 1992، 3، ص 534³

منير سلطان، البديع في شعر شوقي ، منشأة المعارف، الاسكندرية، مصر، ط 1986، 1، ص 188⁴

سورة سبأ، الآية 16⁵

يهجو فيه الناس في زمنه ،خاصتهم وعامتهم ،فهم سواء في الشرِّ ،وقد جعل الشاعر المشكلة في هذا السياق بين "مدحت قوما " و " نظمت لهم قصائدا " وهو لا يقصد أن يمدحهم مرّة أخرى ولا أن يهجوهم ، قال الواحدي " مدح قوما بخلاء لا يستحقون المدح، يقول: إن عشت غزوتهم بخيل إناث وذكور "فجعل "نظمت " مكان "غزوت" استهزاء وسخرية منهم، لأنهم في نظره يحبون الإطراء ولا يُكرمون الشاعر، وليس فيهم ما يُمدح.

كما يحمل المقطع وعيدا شديدا للهجة من الشاعر الذي رأى أن يغيّر من أسلوبه في التعامل معهم ، وجعل "حربه عليهم" "نظماً" أيها ما لمعنى آخر، وقد يتوقع السامع أن نظمه للقصائد يكون هجاءً - بالنظر إلى السياق - وهذا ما لا يذكره الشاعر ولا يريده، بل جاء به حفاظا على التناسب في اللفظ، وبذا يكون "إحتمال الهجاء" نقيضا لما ورد من "المديح"، ويرشحه ذكر "النظم"، غير أن هذا التضاد لا يأخذ المنحى الموضوع له بدقّة بل ينحرف بزاوية أوسع حتى يبدو تجاوزا من القول إلى الفعل، فالقوم لم يقدّروا المديح ولم يجازوا عليه ولا يرى الشاعر أن يتركهم ، لأن شهادته عليهم بالخصال الحميدة وتخليد ذكرهم بها لا يحموه هجاؤهم

والبدیع فی هذا الإیهام أن الشاعر جاء باللفظ المشاکل نقیضا للمشاکل، ولم یکرره، وهذا - بالطبع - اعتمادا علی فهم المخاطب، فلیس فعل "نظمت" ذکر فی التعبير الأول، ومع ذلك فلیس بعیدا علی المتلقي أن یفهم المراد بقوله "مدحت" لأن المدیح لا یشعر إلا نظما، أما الحرب فلا تكون كذلك، وما "یسوغ ویحسن فی کثیر من المواضع أن یشعر المقصدان غیر

المتنبى، الديوان، ص 260¹

المتنبى الديوان، ص 260²

منصرفين إلى محلّ واحد أو غير منبعثين من محلّ واحد¹ " واللفظان "مدحت" و"نظمت" بالنظر إلى الحقيقة ليسا منصرفين إلى محل واحد، ولا منبعثين من محل واحد. وهذا ما يبعث في المتلقي التعجب والاستطراف الذين يعدهما القرطاجني أول مزايا الإيهام .

والقراءة المتبصرة تلفت نظر المتلقي إلى بعض الإشارات التي ضمنها المتنبي خطابه، هذه الإشارات تلمح إلى قضية "الشاعر وحاله بين هؤلاء"، فقله :

حولي بكلّ مكان منهم خلقٌ تخطي إذا جئت في استفهامها بَمَنٍ

معناه أن الناس في زمنه صاروا كالبهائم، لا يجب أن تسأل عنهم بـ "مَن" التي للعقل، وإذا كانوا كذلك فإن نظم القول من الشعر أجدرُّ بالأفهم عندهم، وقد أشار الشاعر إلى هذا المعنى واشباهه في كثير من المواضع، ومن ذلك قوله "أحق بضرب الرأس من وثن" وقوله "فقر الجهول بلا قلب إلى أدب" ولم يرَ منهم ما يميّز البشر فانصرف من "نظم الشعر" إلى "نظم الحرب" لأن الحرب لا تحتاج فهمهم ولا تنتظر استماعهم وذلك قوله "إذا تنوشدن لم يدخلن في أذن".

2- 3 - التحسين / التقبيح :

والمشكلة أسلوب يتجلى الإيهام فيه أنه يحث المتلقي على الفعل أو تركه اعتماداً على محاكاته في غيره ، فقول الشاعر

قالوا اقترح شيئاً نجد لك طبخه قلت اطبخوا لي جبّة وقباء

ذكر الطبخ جواباً مع أنه لا يريده ، وذلك لأنه علم أن فيهم رغبة في الفعل "قالوا...نجد لك طبخه" ، فأراد أن يرغبهم في فعلٍ غيره بذكره مشاكلاً لما أرادوا ، وهذا إيهام الشيء في غيره - كما مرّ بنا - لغرض تحسينه، وقد يخل في بعض الأمور "الحمل النفوس على فعل شيء أو طلبه أو اعتقاده...بأن يوقع في غالب ظنها أنه خير...بطريق من الطرق التي يقال بها في الأشياء أنها خيرات"²، وإذا كان الشاعر في حاله هذه يشتهي كسوة كما يُشتهى الطعام فالمشكلة قد بلغت رسالته .

وقد يومي اللفظ في المشكلة إلى شيء لا يرجى وقوعه ، وتؤدي المشكلة في هذه الحال إيهاماً بالتقبيح ، وفي بيت عمرو بن كلثوم "لا يجهلن...فجهل" هو تحذير ووعيد ، والتنبهات التي يحتاجها الإنسان أكثر ما تكون في الخاصة التخيلية للشعر، لأن القصيدة "تنطوي على معطيات بينها وبين الإثارة المرجوة علاقة الإشارة الموحية، وتُحدث العملية فعلها عندما تستدعي خبرات

القرطاجني، المصدر السابق، ص 350¹
نفسه، ص 20²

القارئ المختزنة والمتجانسة مع معطيات الصور المخيلة¹ والإشارة في البيت واضحة، وهي تصور قدرة الشاعر على رد الظلم بما هو أعظم . وفي هذا السياق، ترى المتنبي يشير بأسلوب المشكلة إلى بعض الأفعال التي "يراد لها أن تكون" أو أن يمتنع الإنسان عنها لسوء ما فيها، وفي الحديث عن الحكمة وحسن الرأي يبرز المتنبي قيمة العقل وأسبقته على القوة البدنية والشجاعة، من خلال الإيهام، لأن بعض الأشياء لا تبدو أهميتها إلا من خلال إيرادها في هيئات غيرها، لأن الشاعر في بعض معانيه يسلك طريقا غير طريق الحقيقة إذا أراد "التقريب والتمثيل"، وحيث يقصد التلطف والتأويل، ويذهب في القول مذهب المبالغة والإغراق في المدح والذم² وبعض المعاني لا يدرك إلا من خلال الإيهام، كما الحال بالنسبة إلى "سداد الرأي ومنافعه" إذ يقول المتنبي :

الرأي قبل شجاعة الشجعان هو أولٌ وهي المحلّ
الثاني

فإن هما اجتماعا لنفسٍ مـــــــرّة بلغت من العلياء كل مكان
ولربما طعن الفتى أقرانه به بالرأي قبل
تطاعن الأقران

لولا العقول لكان أدنى ضيغم أدنى إلى شرف من الإنسان
ولما تفاضلت النفوس ودبرت أيدي الكماة عوالي
المران³

والمشكلة واقعة في قوله "طعن الفتى... قبل تطاعن" وليس الرأي مما يطعن الأعداء أو الخصوم على الحقيقة، لكنه لما ذكر في سياق المواجهة والخصومة، وكان وجه الخصومة غالبا هو التطاعن بين الفرسان، عبر الشاعر عن "الغلبة" بلفظ الطعن.

ولا يخلو هذا الإيهام من حثّ على الفعل، لأن الرأي في نظر الشاعر يجب أن يكون أول ما يميّز الإنسان فهو في منزلة أعلى من منزلة الشجاعة، مع ما في الشجاعة من فوائد، وإذا كان الوصف بالحكمة وسداد الرأي أحسن من وصف الشجاعة فلا شك في أن "الرأي" أصل لها، ولا تنفع من دونه، ألا ترى "الأسد" وفيها الشجاعة والقوة، لا تعلو إلى مرتبة الإنسان؟ إذن، ففعل الطعن في أسلوب المشكلة هو إيهام "بالتحسين"، يشير بطريقة بارعة إلى معنى الغلبة المطلقة للإنسان على الإنسان، لأن صاحب

جابر عصفور، مفهوم الشعر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط 5، 1995، ص 197
الجرجاني، أسرار البلاغة، ص 203²
المتنبي، الديوان، ص 590³

الرأي يبادر بالطعن ،ويسبق أقرانه خطوة إلى النصر إذا كان شجاعا ، وغاية هذا الأسلوب الذي اعتمده المتنبي ،حمل النفوس على الفعل ،بأن "يخيل لها أو يوقع في غالب ظنها أنه خير...بطريق من الطرق التي يقال بها في الأشياء أنها خيرات"¹ بأن مثّل لها الغلبة في فعل "الطعن " .

وكلّ ما يكون سببا في النصر أو القوة مصدره العقل ،ويؤيد ذلك ما سبق بعده من حجج؛وكان الشاعر يريد أن يثبت صحة ما إدعاه ،ذلك لأن "التأثير في المتلقي لا يمكن أن يتم إلا بلون من الإيهام،يخال معه المتلقي أن ما يراه هو الحقيقة أو ما يجب أن يكون في الواقع"² ولا يشترط أن يكون الإيهام مخالفا للحقيقة إذا نظر المتلقي إليه في الواقع،فمدار الأمر تقديم رؤية من زاوية يرى منها المبدع نوقد لا يرى منها القارئ.

3 - 2 - الإبداع :

كما أن المشكلة في اللغة الفنية لا توظف لتحتّ على الفعل أو تحذر منه فحسب،إذا نظرنا إليها ،وإلى كل الأساليب الأخرى (بديعية أو بيانية) من وجهة نظر جمالية ،فالشعرية كامنّة "في اللغة المستخدمة...حيث لا يكون الشعر شعرا على وجه العموم ،وإنما هو شعر بما في اللغة من خواص تعبيرية وإيقاعية حققت له كيانه ،قد يكون هناك تجربة وهناك عاطفة،لكن الذي يصنع الشعر هو اللغة بكل طاقاتها وإمكاناتها التعبيرية"³ ،معنى هذا أن اللغة الفنية تمثّل جسرا يعبر من خلاله الشاعر إلى المتلقين،وليست اللغة في هذه الحال لغة جديدة في مفرداتها ، وإنما هي لغة من تلك اللغة المستخدمة ويبقى الفارق - في الشعر - "في طبيعة العلاقات التي تكون بين الدال والمدلول من ناحية ،وبين المدلولات بعضها ببعض من ناحية أخرى" وتمثّل المشكلة عدولا بالمدال عن مدلوله ، ينتج عنه علاقة جديدة بين المدلولات .

فالشاعر قد يداعب في المتلقي شعوره ،بقصد بريء دون أن يستدرجه إلى أي فعل،ولا تكون المشكلة في هذه الحال إلا طريقة فنية في إبداع اللغة من جديد،أو رسم الواقع بحروف هي حروف الواقع لكن بترتيب بديع ، وإذا نحن تأملنا قول المتنبي :

فإن أمرض فما مرض اصطباري وإن أحمم فما حمّ
اعتزامي

الفرطاجني،المصدر السابق،ص 19،20¹

جابر عصفور،قراءة التراث النقدي،مؤسسة عيال،قبرص،ط1991،ص 280²

محمد عبد المطلب،بناء الأسلوب في شعر الحداثة،التكوين البديعي،دار³

المعارف،مصر،ط1995،ص2،8

وإن أسلم فما أبقى ولك ن سلمت
من الحمام إلى الحمام
تمتع من سهاد أو
رق ساد ولا تأمن كرى تحت الرجسام
فإن لثالث الحـالين معـنى
سوى معنى انتباهك والمنام¹

نلفي في هذا المقطع محاولة من الشاعر وصف حالة نفسية تسير في الاتجاه المضاد لحالته الجسمية، فهو وإن كان مريضاً محموماً، وقد طال به الحال هكذا، فإن صبره وعزيمته باقيا كالعادة، لم يؤثر فيهما السقم ولا الغربة. ولا يريد الشاعر من المتلقي أن يفعل أو يترك الفعل بقدر ما يريد أن يقدم إليه "نظرة خاصة" وهي نظرة صادقة، تكون في غالب الأحيان معانيها مألوفة لدى الناس، لكنها في أسلوب المشاكلة - الذي اعتمده - تبدو مبتكرة، والمبدع "يستعين بمخيلته، التي تعمل في رعاية العقل، ليعرض على المتلقي المعاني القديمة أو الأفكار المقررة في شكل جديد يمثل أمام ناظره"² وكأنه حقيقة ثانية لا تختلف في جوهرها عن الواقع بل تمتاز عنه بقدرتها على الإيهام.

وقد أبقى الشاعر على تناسب الإيقاع اللفظي في قوله "فإن أمرض فما مرض" و"إن أحمم فما حُمّ" مراعاة للصورة التي يحسن النظم بها، لأن التناسب أقرب إلى روح الإبداع الشعري، وهو أقرب إلى إثارة المتلقي، الذي تهزّه تلك الإشارات اللطيفة حين ترد عليه من غير أن يتوقعها، والشاعر لا يجب أن يُبقي القارئ متفجعاً بل عليه أن يُدخله عالم التجربة من باب جمالي، حين يوظف بعض التخيلات.

وأن يورد المتنبي لفظ "فما مرض" عوضاً عن لفظ "ما كلّ" أو أشباهها مما يسند إلى الصبر، هو من الناحية الفنية توسع وتجاوز لثنائية "الدال والمدلول" الثابتة في اللغة، ينتج عنها علاقة جديدة بين "الشكل والمضمون" تبعاً للسياق، فاللغة الفنية هي القادرة - بما تمتاز به من مرونة - على أن تبقي كلّ مألوف في لغة الناس جديداً مبتكراً، بل وتكسر الحواجز بين الاستعمالات المختلفة للفظ.

وحالة المتنبي في هذه القصيدة ليس فيها ما يشي بالراحة إلا "وجود الصبر والعزيمة" فقد قالها في مصر إذ لم ينل ما يريد من كافور، ونزلت به

المتنبي، الديوان، ص 674¹

جابر عصفور، قراءة التراث النقدي، ص 283²

الحمى، وتكشف له الناس على حقيقتهم، حتى قرّر أن يكون معهم كما يعاملونه، فلم يرَ حبه لهم إلا غباء منه لأنهم قوم يبتسمون ولا يحبون، وفي ذلك قال :
ولما صار ودّ الناس خبّا جزيت على ابتسام بابتسام
وبهذا تتوسع دائرة المشكلة من القول إلى الفعل ويصبح "الابتسام جزءاً للإبتسام" والشك حارساً في الصداقة والهجر سلاحاً في وجه اللئام، وبشكل النص انطباعاً ذاتياً تنعكس عليه هذه الصورة الزائفة لتعاملات الشاعر في الواقع، وتتجلى فيه التخييلات التي تردّ المتلقي إلى ذلك الواقع، وليس في الشعر " عيار ثابت لقياس الاستخدام الدلالي للكلمات، سوى السياق الذي تستخدم فيه، من زاوية الغاية التي يهدف إليها الشاعر ، والتي تتشكل بهدئٍ منها فاعليّة السياق نفسه" واللفظ إذاً جانب السياق الشعري أدى معنى آخر قد لا يكون قريباً من الأول أو مضاداً، كما قال المتنبي:

رحلت فكم باك بأجفان شـادان عليّ وكم باك بأجفان
ضيفم
فلو كان ما بي من حبيب مقتـع عذرت ولكن من
حبيب مـعـم
رمى واتقى رمي ومن دون ما اتقى هو كاسر كفي
وقوسي وأسهمي
أذا ساء فعل المرء ساءت ظنونـه وصدق ما يعتاده من
توهـم
أصادق نفس المرء من قبل جسمه وأعرفها في
فعلـه والتكـلـم
وأحلم عن خلي وأعلم أنـه
متى أجزه حلما على الجهل يندم
وإن بذل الإنسان لي جود عابـس جزيت بجود التارك
المتبسـم
هم المحسنون الكر في حومة الوغى وأحسن منه كرههم في
المكـارم
وهو يحسنون العفو عن كلّ مذنب ويحتملون الغرم عن كل
غـارم

سرى النوم عني في سراي إلى الذي صنّاعه تسري إلى كل نائم¹

فقد جعل سيف الدولة يرميه في إشارة إلى غدره به، وهذا مجاز يتبعه لفظ مشاكل له في مجازيته، وهو قوله " وانتقى رميي " لأنه جعل مكافأة الغدر رميا كالغدر، كما أوهم في البيت الخامس " معنى الصحبة " في لفظ "أصادق" مشكلة بينه وبين "مصادقة النفس" ، ثم جعل "ترك أخذ الجود" جودا فقال " إذا بذل جود عابس جزيث جود التارك " ولا وجود للسائل عمن يعطيه، لكن الشاعر جعل ذلك من قبيل الإيهام بالمشكلة ليجعل ما بين الفعل وجزاء الفعل مناسبة، ويؤكد أنه لا يرضى بوجود من يعطي وهو كاره.

المتنبي، الديوان، وضعه عبد الرحمن البرقوقي، دار الكتاب¹ 242
العربي، بيروت، لبنان، 1407 هـ، ج3، ص